جولة في شعر الصعاليك ونقده

الدكتور محمد رضا هاشملو

استاذ جامعي

لم يعد هناك شك لدى المؤرخين الاجتماعيين أنّ الادب، بشقّيه النثر والشعر، مرآة تنعكس فيه حياة مجتمع من المجتمعات. إن الأدب ركن مهم في التراث الثقافي، وأهم لبنة في بناء صرح هذا التراث هو الشعر، ليمسك النثر المعجز بين أجزائه. ولما كان كلامنا على الصعاليك وشعرهم، نقول: إن شعر الصعاليك هذا قد ولد في العصر الجاهلي، يوم كان الشعر لسان العاطفة والفطرة، وكانت الفطرة هي الغالبة على شعر الصعاليك لأنهم كانوا أقرب الى أحضان الطبيعة الصحراوية والبدوية الجافة، على الرغم من ابتعادهم عن العلائق القبيلية والروابط الأُسريّة التي كانت من أهم خصائص سائر الشعراء الجاهليين، وبذلك تميز شعر الصعاليك عن شعرهم.

تصدير

العاطفة مهد الأدب، وبين هذين رابطة لا تنفصل. ولهذا نجد أن تاريخ البشر الذي خلا من الكتابة في فترة ما من الزمن، لم يخل من الأدب، لأن الأدب عموماً يعتمد على الحكاية، وهذا يصدق في الأدب العربي أيضاً.

إن الدراسات التاريخية التي أُجريت حول الآداب العالمية، ومنها الأدب العربي بينت لنا أن الشعر قد ظهر قبل ظهور النثر، وهذا يعني أن أعرق أثر أدبي للانسان هو الشعر. ولعل العلة هي أن النثر والكتابة توأمان، بينما الشعر يحفظ من دون حاجة الى كتابته ويروى بسهولة. ثم إن النثر قابل للتحريف والتزييف، وليس الشعر كذلك. والنثر ـ كما يقال ـ لسان العقل والمنطق، بينما يعتبر الشعر لسان الوجدان، والانسان يدرك الأُمور بوجدانه أولاً، ثم بعد ذلك يأتي العقل بفكره ومنطقه. وهكذا يظهر أن النثر وليد الرقي العقلي والفكري في كل عصر.

وهذا يصدق ـ بالطبع ـ على شعر الصعاليك، وهي نتيجة توصلت اليها بعد أن قمت بدراسة شعرهم ابتداءاً

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

من العصر الجاهلي الذي نشأوا فيه، واستشهدت بآيات من القرآن الكريم، ولاحظت أن الشعر الغنائي كان رائجاً في العصر الجاهلي، وهذا يشمل شعر الصعاليك. وتناولت في المقالة تأثير البيئة في الأدب الجاهلي وفي شعر الصعاليك، وقد أوردت الكثير من شعرهم للدلالة على ذلك.

وبعد بيانَ المفهوم اللغوي للفظة «صُعلوك» بينت عوامل ظهور الصعاليك، ثم توافرت لي الفرصة في ختام البحث للاشارة الى موضوع مهم جداً وهو: خصائص شعرَ الصعاليك، وقلت إن الشعر يعكس اتجاهات الشاعر وميوله، ورأيت أن أُطبق أساليب النقد العلمي ورعاية قوانينه.

ثم في النهاية أشرت الى مشاهير شعراء الصعاليك، خاصة لامية العرب الشهيرة للشنفرى، ومن الله التوفيق وعليه نتوكل.

جولةٌ في شعر الصعاليك ونقده

١ ـ الشعر في العصر الجاهلي

يستمرّ العصر الجاهلي من أواخر القرن الخامس الميلادي حتى ظهور الاسلام. والقرآن هو الذي وصف هذا العصر بالجاهلية لغلبة الجهالة والضلالة عليه ولانعدام الوعي الاجتماعي. وقد تكاملت اللغة العربية في هذا العصر واتخذت خصائصها الفعلية. والشعر الجاهلي جزء من أدب هذا العصر. وقد أشار الجاحظ الى هذه النكتة بصراحة قائلاً: «أما الشعر العربي فحديث السنّ، إن الأشخاص الأولين الذين مشوا في هذا الطريق امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة. متى نتّبع سلسلة الشعر نحو الماضي، نَرَ أنّه بدأ من مائة وخمسين سنة قبل ظهور الاسلام وإن نشأ نذهب أكثر في الماضي الى حد نهايته مائتا سنة».

يحسن أن نعلم أن لفظة الجهل ليست نقيض العلم هنا، بل المقصود من لفظة الجهل السفاهة والشرارة التي كانت تعتبر بمنزلة القيم الاجتماعية في ذلك العصر وكانت نقطة مقابل الاسلام، ومفهوم الاسلام هو الخضوع لأمر الله وفعل الدين الاخلاقي. لفظتا الجهل والجاهلية بمعنى التعصب والتهور وعدم التعقل في القرآن والحديث النبوي والشعر الجاهلي ايضاً. مثلاً في سورة البقرة، الآية ٦٨: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذنا هزواً قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾. في هذه الآية موسى عليه السلام يعلم التمسخر بمفهوم الجاهلية. وفي سورة الأعراف، الآية ١٩٩: ﴿خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرفِ وأَعْرِض عَنِ الْجَاهِلِين﴾. إن الله تعالى قد ذكر العفو والدعوة إلى الأخلاق الحسنة بمنزلة النقطة المضادّة للجاهلية في هذه الآية. روي أنّ أبا ذر، ذكر أُمّ أحدهم بقبيحة، فقال رسول الله (ص) له: «إنك امرؤ فيك جاهلية». في هذا الحديث قد علم رسول الله (ص) أن السّبَّ من مظاهر الجاهلية. نقرأ في معلّقة عمرو بن كلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا

فَنجهل فوقَ جهلِ الجاهلينا[١]

لهذا السبب بوُسعنا أن ندّعي انّ عرب بعد الإسلام أبعد عن عرب قبل الإسلام بُعد السماء عن الأرض. لأنّ الإسلام جعل المعايير القيمية على أساس التقوى الإلهية والأخلاق الحسنة والخضوع.

إنّ السؤال الذي يطرح هنا هو: ما الذي وصل إلينا من الأدب الجاهلي؟ لقد امّحى أكثرُ شعر العصر الجاهلي ونثره. يقول عمرو بن العلاء حول هذا الموضوع: «لم يصل إليكم مما قاله العرب إلا قليل، ولو وصل كلّه لكان علماً وشعراً كثيراً».

يحسن أن نتذكّر أنّ العصر الجاهلي شهد مولد شعر الصعاليك، ولهذا السبب يجب أن ندرس أحوال هذا العصر. وفي خلاصة القول يدرج هذا الشعر في زمرة أشعار العصر الجاهلي، ولكن مع الأسف الشديد لم يصل إلينا قسم مهم منها كما أشار عمرو بن العلاء

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

وسبب هذا الأمر هو انّه لم يحفظ أو يضبط قسم كبير من الأدب الجاهليّ، وبقيّته امّحت من الوجود بموت رواته.

فنون الشعر الأدبية على أربعة أقسام: الفن القصصي، الغنائي، التمثيلي، التعليمي. إنّ الأدب العربي القديم يخلو من الشعر القصصي الذي هو الشعر الملحمي، لأنّ العرب لم يحصلوا على الوحدة الوطنية. ولا وجود للشعر التمثيلي في الأدب العربي القديم أيضاً، لأنّ قليلاً من العرب كان حضريّاً وكان أشدّ اتجاهاً إلى الواقعية ولهذا السبب لم يَصِرْ تخيّله غنياً. علاوةً على هذا شاع التكسّب بالشعر بين شعراء العرب فهذا الامر لم يُبق فرصةً لانشادِ الشعر القصصي والتمثيلي.

بالرغم من ذلك فإن الأدب العربي وإن خلا من الآثار الملحميّة الطويلة، فإنه ليس فارغاً من قصائد مملوءة بالروح الملحميّة. ولكن الشعر الغنائي كان ساحةً للجولان وإظهار فن العرب فقط واستعملوا فيه حذاقتهم وقدرتهم الفنية وخلقوا العجائب. يتوجّه الشاعر إلى نفسه في الشعر الغنائي وعبر قصائد قصيرة يطرح عواطفه وافكاره ويصوّر التخيّلات وعقائده لبيئته. بناء على ذلك فإنّ الشعر الغنائي يبيّن تغيّر الأوضاع والرفاهية في المعيشة والشاعر يعبر فيه عن مكنونات ضميره وأنينِ قلبه.

تأثير البيئة في الأدب الجاهلي:

لم يزل العربُ البدو يواجهون الطبيعة الخشنة والجافّة الصحراوية. لم يكونوا متمتعين بطبيعة جميلة خضراء ولطيفة كما يتمتّع الأوروبيون. وعِوَضاً عن الوردِ كانوا يواجهون الشوك والحسك والرّمل الحارّ. لهذا السبب تعوّدوا أن يكونوا متّسمين بالواقعية متداركين فقدَ الجمالِ ولطائف الطبيعة بالاشتغال بالأدب. وهكذا انغمس العرب في البيئة والآداب والتقاليد القبيلية والأفكار المتنوّرة والخيال القصير، وقد بادروا بالتعبير الصادق عن الطبيعة تعبيراً واقعياً.

أدبهم هو الأدب البديهي والارتجالي والظاهر والواقعي، بعيداً عن التفصيل والتركيب العلمي والترتيب المنطقي. لهذا كان الأدب الجاهلي صورة للمجتمع البدوي وثمرة له، اذ انّه كان ولم يزل يصارع الطبيعة. ونتيجة لمواجهة عرب الجاهلية مع الطبيعة نشاهد تأثيراً عميقاً وواسعاً للبيئة الطبيعية في شعر الصعاليك ولنا أن نقول إنهم كانوا أشدّ مواجهة مع الطبيعة من غيرهم. ومن مظاهر هذه المواجهة أن الشنفرى الشاعر الصعلوك الشهير في العصر الجاهلي طُرد من قبيلته وتاه منفرداً في الجبال والصحارى مع الوحوش والحيوانات. وفي هذا الطريق حصل على نوع من الانطباق مع الطبيعة كما يقول في قصيدته المعروفة بلامية العرب:

ولي دونكم أهلونَ: سيدٌ عملّسُ
وأرقطُ زُهلولٌ وعرفاءُ جَيأَلُ[٢]

معاني الشعر الجاهلي وأغراضه

١ ـ الوصف. في الوصف يشتغل الشاعر بوصف ظاهرة أو كائن أو حيوان. كهذا البيت من امرئ القيس في وصف فرسه حين الصيد:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبل مدبرٍ معاً
كجلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من عل

٢ ـ المدح. وهو عبارة عن بيان سجايا الممدوح، كما في شعر النابغة الذبياني في مدح النعمان بن المنذر:

فإنّك شمسٌ والملوك كواكِبُ
إذا طَلَعتْ لم يَبدُ منهنّ كوكبُ

٣ ـ الرّثاء. أي مدح الموتى والقتلى في الحرب، كهذا البيت للخنساء في رثاء أخيها صخر الذي قتل في إحدى حروب العصر الجاهلي:

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

يُذكِّرُني طلوعُ الشمس صخراً
واذكره لكلِّ غروبِ شمس

٤ ـ الهجاء. أي الذم وقبيح الكلام فيعزو الشاعر لشخص ما الرذائل ويصوره في صورة قبيحة، كشعر الحُطيئة في هجاء شخص اسمه زَبْرقان:

دَعِ المكارمَ لا تَرحلْ لبُغيتِها
واقعُدْ، فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

٥ ـ الفخر. في هذا النوع من الشعر يُباهي الشاعر بنفسه ويتكلّم عن مفاخر نفسه ومناقبها وقومه كقول عمرو بن كلثوم شاعر العصر الجاهلي:

إذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ
تَخِرُّ له الجبابرُ ساجدينا

٦ ـ الغزل. يعني أنّ الشاعر يُظهر لوعةَ حبّه بالشعر لمحبوبه وهو على نوعين: عفيف وغير عفيف، كهذا البيت من عنترة بن شداد الذي يُعدّ من النوع العفيف:

أُعاتِبُ دهراً لا يلين لناصحٍ
وأُخفي الجَوى في القلب والدمعُ فاضِحي

٧ ـ الخمريات. وهي شعر حول شرب الخمر مثل كثيرٍ من أشعار الأعشى الأكبر، شاعر العصر الجاهلي:

فقامَ فصبَّ لنا قهوةً
تسكِّنُنا بعدَ إرعادِها

٨ ـ الزهد والحكمة. كان الشاعر البدوي يحسب الدنيا تافهةً حين يواجه صعوبات الحياة ولهذا السبب يُظهر غمّه عبرَ الحكمة والنصيحة، كما أنشد زهير بن أبي سلمى، الشاعر المفكّر في العصر الجاهلي:

ومَن لا يُصانعْ في امورٍ كثيرةٍ
يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويوطأْ بمنسم

لابد أن نُشير الى أنّ بعض هذه المعاني والاغراض، كالخمريات والغزل غير العفيف، ليست في اشعار الصعاليك، وذلك لأن اتّجاههم في الحياة كان الوصول الى عزّة النفس. ومن الطبيعي أنهم لم يكونوا يعيشون في ترف بل كانوا ثائرين ضد المظالم والمحاباة الاجتماعية وما يزالون مواجهين بالأعداء والموت في الصحارى الجافّة والموحشة. أنشد تأبّط شراً، أحد الصعاليك المشهورين في هذا المجال:

يَظلُّ بموماةٍ ويُمسي بغيرِها
جحيشاً ويَعروري ظهورَ المهالكِ[٣]
ويَسبقُ وفدَ الريح من حيثُ يَنتحي
بمُنخَرَقٍ مِن شدةِ المتداركِ
اذا خاطَ عَينيه كَرَى النومِ لم يَزَلْ
له كالئٌ من قلبِ شيحانَ فاتِكِ
ويجعل عينيهِ ربيئةَ قلبه
الى سلّةٍ من حدِّ أخلقَ صائكِ
اذا هَزَّه في عظمِ قِرنٍ تَهَلَّلتْ
نواجذُ افواهِ المنايا الضواحكِ
يرى الوحشة الأُنس الأنيس ويهتدي
بحيث اهتدت امّ النجوم الشوابك

في الواقع نحن نحسّ مظاهر حياة الصعلوك المخيفة. الصعلوك الذي يُلقي نفسه في المخاطر والمهالك ويريد أن يُقتل في ساحة الحرب وشعره مملوء بهذه المعاني والمفاهيم التي تبيّن لنا الثقافة والأفكار الجاهلية. وهذه هي رسالة الأدب التي تُبيّن لنا علم النفس الاجتماعي لأي قوم وفي أيّ عصر من التأريخ.

وبالمضي في دراسة أشعار الصعاليك سنجد مظاهر كثيرة من هذه الرسالة، رسالة الادب في أبعاد مختلفة، لأنّ اشعارهم كمخزن زُجاجي يجمع فيه الألوان والمناظر البديعة. مطالعة هذه الأشعار كسير في معرض كبير واسع يرينا المفاهيم المتنوّعة من حياة العرب البدو، العرب الذين يعيشون في ضوء البادية الصادق ويعبّرون عن أحاسيسهم عبر الأبيات الشعرية، وهو صادق لا يعرف الغشّ والنفاق.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

٢ ـ الصعاليك وعلل ظهورهم:

الصعلوك بمعنى الفقير، واستُعمل معادل هذه المفردة مرّاتٍ في كتاب «سمك عيار» بصورة «ناداشت». الصعلكة هي الفقر، والصعاليك هم الفقراء، مثلاً نستطيع أن نقول: «تصعلك الرّجل اذا افتقر». وأيضاً جاء تعريف الصعلكة في معاجم اللغة هكذا:

١ ـ في لسان العرب (الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له).

٢ ـ في القاموس المحيط (الصعلوك هو الفقير).

٣ ـ وفي المعجم الوسيط (الصعلوك: الفقير).

ثم ان كلمة صعلوك يختلف معناها في اللغة عنه في الاستعمال الأدبي. في اللغة جاء معنى الصعلوك: الفقير الذي لا مال له. وأنشد حاتم الطائي في هذا المعنى:

غنينا زماناً بالتصعلك والغِنى
فكلّاً سقانا بكأسَيهِما الدهرُ

ويقول الأعشى:

على كلِّ احوالِ الفتى قد شَرِبتُها
غنياً وصعلوكاً وما إن أقأتُها

هذه النصوص التي ذكرناها لا تدع مجالاً للشك في أن الصعلكة هي الفقر، وإن كانت دلالة الكلمة قد تطوّرت، فأُطلقت أيضاً على الفقر المقترن بنزوع ثوري، إن صدق هذا التعبير. وبتعبير آخر كلمة الصعلوك انفصلت عن مفهومها الأصلي عبر الزمن في العصر الجاهلي وصار لقباً اختصّ بالمشاغبين وقطّاع الطرق، وقيل: «قد تطور معنى الصعلكة فأُطلق على الشجعان، ونلاحظ ذلك في شعر المتنبي الذي وصف بطولة الحمدانيين وثباتهم في وجه الدولة البيزنطية، فقد أذاقوا الروم الويلاتِ والهزائم المتواصلةَ في غزواتهم على بلاد الروم». يقول المتنبي في البحر الكامل:

المُخفرينَ بكلِّ أبيض صارمٍ
ذمَمَ الدروعِ على ذَوي التيجانِ[٤]

مُتَصعلكين على كثافةِ مُلكِهم
متواضعينَ على عظيم الشانِ
خَضَعَتْ لِمُنصلك المناصلُ عنوةً
وأذلَّ دينُكَ سائرَ الأديانِ

بعد بيان المعنى الأدبي والمعنى اللغوي لكلمة الصعلوك اريد أن أقول إنّ أسباب ظهور الصعاليك اثنان:

١ ـ صيانة عزة النفس ٢ ـ مسألة التفاضل الاقتصادي.

نستطيع أن نذكر أسباباً أُخرى لظهور هذا الاتّجاه ولكن كلّها ترجع لهذين السببين بنوع. أما سبب ذكري صيانة عزة النفس في المرحلة الاولى؛ فذلك لكيلا يتصوّر بعضهم أنّ أفكار الصعاليك تجري في جهة واحدة مع الأفكار الشيوعيّة. لأنّ بين هذين الاتجاهين تفاوتاً جوهرياً. في الحقيقة الصيانةُ من حريم عزّة النفس أمر معنويّ وهذا الامر مأخوذٌ من تعصب العرب البدويّ وبعض القيم الأخلاقية. علاوةً على هذا لنا آلاف الأمثلة في تاريخ العرب تدلّ على أنّ العرب لا يستنكفون عن بذل مالهم وحتى تضحية النفس للدفاع عن قيمة أخلاقية أو حماية لاجئٍ أو الحفاوة بضيفٍ وكلّها صيانة من العار.

هناك أمر عجيب في حياة الصعاليك؛ وهذا الأمر العجيب هو أنّ الصعلوك يهمّه أمرُ اجتنابِ الذّل الى درجة أنه لا يريد أن يعيش تحت حماية القبيلة والتزام قوانينها إذ أنّه يحسب هذه التعلقات نوعاً من الذلّة، ولهذا السبب يرجّح أُسلوب حياة الوحوش في الصحراء على الحياة القبيلية، فتجد أن حياة الذئب والعرفاء والنمر، اسوة مطلوبة له، ويتحقّق تكامل شخصيته حينما يقدر أن يعيش مستقلاً كعرفاء أو نمر ولا يكون بحاجة الى المجتمع البشري. آنذاك فإن اقلّ إحساس بالذل يجعل العربي يلقي بنفسه في المهالك، والصعلوك يرى في

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

التعلق بالقبيلة والتزام قوانينها نوعاً من المحدودية ولكنه يريد أن يكون طليقاً من أيّ قيد كالوحوش في الصحراء.

أبلغ الصور لهذا التفكر يُرى في لامية العرب، حين يقول الشنفرىٰ:

ولي دونكُم أهلونَ: سيدٌ عملّسُ

وارقَطُ زهلولٌ وعرفاءُ جَيأَلُ

مهما يكن من أمر، فإن الصعاليك بتجنبهم الذلّ كانوا شجعاناً مغامرين لا يبالون بالأهوال والمخاطر، لأنهم يخاطرون بحياتهم لتحقيق غرض شريف في نظرهم هو مسح دموع البائسين، ولأن الموت عندهم أمر متحتم لا مفرّ منه. قال عروة بن الورد لزوجته:

أقِلّي عليّ اللومَ يا ابنةَ منذرِ

ونامي فإن لم تشتهي النومَ فاسهري[٥]

ذريني ونفسي أُمّ حسّانٍ إنّني

بها قبل ألّا أملك البيعَ مشترِ

أحاديث تبقى والفتى غيرُ خالدٍ

اذا هو أمسى هامةً فوقَ صيِّرِ

ذريني أُطَوّف في البلاد لعلّني

أُخلّيك أو أُغنيك عن سوءِ محضرِ

فإن فازَ سهمُ المنية لم أكُن

جزوعاً وهل عن ذاك من متأخّر؟

وان فاز سهمي كفّكم عن مقاعدَ

لكم خَلْفَ أدبار البيوتِ ومنظر

هذه الحياة اقتضتهم أن يكونوا على حذر وتهيب دائم، لا ينامون إلا قليلاً، ليحموا أنفسهم، وليستمعوا سير القوافل لعلهم يباغتونها فينالون منها ما يريدون.

الأوضاع المادية والجغرافية والاجتماعية والمجالات التاريخية أوجدت الروابط الجائرة في المجتمع البدوي. أبرز الوجوه لهذا الجور والظلم يشاهد في الروابط الاقتصادية. في البيئة التي تحدَّد فيها العدالة في أذهان أهلها في ضوءٍ ضعيفٍ، يطلب القويّ أكثر المزايا لنفسه بلا شك ويمتلك أكثر الذهب والفضّة ومن هنا يوجد التباين الاقتصادي.

ان التفاضل من أيّ جهلة وبأي شكل، يبذر البغض والانتقام في القلوب. وعلى هذا يطلق الصعاليك أنفسهم من القيود والسنن القبيلية بصورة كاملة، وعلاوة على هذا انهم يلجأون الى الصحراء ويكمنون على طرق القوافل اطفاءً لنار غضبهم وانتقاماً من مالكي الذهب والفضة، أو يخرجون من مراصدهم في الليالي المظلمة ويعتدون على حريم القبائل، ويقتلون رجالها ويغيرون على الأنعام والأموال.

على الرغم من هذه الأعمال الجائرة الموجودة في المجتمع البدوي نجد أن الصعاليك لم يسعدوا في المجتمع الجاهلي نظراً لأن الثروة كانت موزعة بطريق لم ينالوا منها شيئاً، فتأثروا تأثراً شديداً وأملقوا إملاقاً دفعهم إلى بيع أولادهم. وقد اضطروا لظروف الحياة القاسية المحيطة بهم أن يغتصبوا نصيبهم غصباً من ثروة محصورة في أيدٍ قليلة وهي طبقة الأثرياء الأشحّاء.

على أن الدافع في ثورتهم على الأغنياء الأشحاء كان إما الانتقام منهم لأنهم يضنّون ببعض أموالهم عليهم، وهم الطبقة المحرومة الفقيرة، لذا غنموا وسلبوا قهراً. على اننا لا نقبل أن تلبس هذه الثورة الصعلوكية زياً بالمفهوم الحديث وخاصة نظرة الثورة الشيوعية المارقة الملحدة. فهناك فرق جوهريّ بين ثورة الصعاليك البريئة من مفاهيم الثورات الحديثة، والثورة الماركسية التي أقامت سلطتها بالقهر والدماء وتحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، والتي تمني الإنسان بالسعادة والرفاه، وهي أبعد ما تكون عن هذه المفاهيم، بل أشقته ودمرت كيانه وحطمت شخصيته وأفقدته أعزّ ما يملك، أفقدته الإيمان والمبادئ الأخلاقية الكريمة، في

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

حين كانت ثورة الصعاليك ثورة هدفها الحصول على لقمة العيش وشتان بين مفهوم الصعاليك ومفهوم الثورة الماركسية. ولله درّ الشاعر الذي يؤكد أن لا لقاء بين ثورة الصعاليك البريئة وثورة الإلحاد والكفر والفقر والممثلة في الثورة الماركسية. يقول الشاعر:

سارت مشرّقةً وسِرتُ مغرّباً
وشتّانَ بينَ مُشرِّقٍ ومُغَرِّبِ[٦]

نلاحظ أن بعض الصعاليك كان معتدلاً في نظرته للاموال: إذ نلمس ذلك في صورة مشرقة رائعة صورها الأُحيمر السعدي أحد الصعاليك في الإسلام، وحصر نظرته في مفهوم واضح وهي أن الأموال لله تعالى فليأخذ منها الصعلوك ما يسدّ رمقه ويقيم أوده. يقول الأحيمر:

وإنّي لأستحيي من الله أن أُرى
اَجُرُّ حبلاً ليس فيه بعيرُ[٧]

وأن اسأل الخبلَ اللئيمَ بعيرَهُ
وبِعرانُ ربّي في البلادِ كثيرُ

عوى الذِّئبُ فاستأنستُ بالذئبِ
اذ عَوى وصَوَّتَ انسانٌ فكدتُ أطيرُ

يرى الله أنّي للأنيس لشانئ
ويُبغِضُهُم لي مقلةٌ وضميرُ

فإن هذا الصعلوك مستأنس للوحوش في الصحراء، مستوحش من الانسان الظالم الذي يحرم الفقراء والمحتاجين رفده، ويضنّ بمال الله على المساكين. وقد أوضح الشعراء الصعاليك أهداف غزوهم للقبائل وسلبهم للاموال.

٣ـ خصائص شعر الصعاليك:

ان الشعر مرآة كاملة للأفكار والاتجاهات السائدة، وفي هذا الطريق اذا سرنا الى الأمام، مع العلم بأساليب النقد ورعاية قوانينه وبمعرفة المسائل الشعرية؛ فاننا سوف نعرف بلا شك خصائص هذه المرآة الكاملة.

إنّ هذه الاشعار وليدة الزمن والبيئة الجاهلية. وفي الحقيقة لها وجوه مشتركة بينها وبين سائر أشعار هذا العصر. ولكن الاختلافات في كيفية حياة الصعاليك وحياة الشعراء الآخرين، هي التي اوجدت خصائص هذه الاشعار. ولوجود هذه الخصائص قد يحدث ان يمنعوا انتساب عدة أبيات لعدة شعراء لأنّ جوّ الصعلكة يشمّ في تلك الابيات، منها اربعة أبيات من معلقة امرئ القيس اختلف في إسنادها، وكان عدة من العلماء يعتقدون انها لامرئ القيس وعدة آخرون يعتقدون خلاف هذا الأمر، كان منهم الاصمعي الذي قال إن هذه الابيات الأربعة لتأبّط شراً وكان أبو حنيفة الدينوري وابن قتيبة يوافقانه. وقال صاحب خزانة الأدب ان هذه الابيات أقرب الى كلام الصعلوك من الملوك، وهذه الابيات هي:

وقِربةِ اقوامٍ جَعَلْتُ عِصامَها
على كاهلٍ منّي ذلولٍ مرحَّلِ[٨]

ووادٍ كجوفِ العير قفرٍ قطعتُهُ
به الذئبُ يَعوي كالخليعِ المعيَّلِ

فقلت له لما عَوى: إنّ شأننا
قليلُ الغنى إن كنتَ لمّا تموّلِ

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته
ومن يحترثْ حرثي وحرثَكَ يهزلِ

إننا نحسّ أنين قلب الصعاليك في الأبيات المذكورة بدقّة، وكما قلنا، لهذا السبب عدة من العلماء لم ينسبوا هذه الأبيات الى امرئ القيس وقالوا إنّ مفاهيم هذه الابيات تشابه كيفية وجوه الحياة عند الصعاليك، وإذا تعمقنا في هذا التوجيه والاستدلال نفهم أنه بيان خصيصة ذات أهمية لشعر هذه الفرقة من الشعراء، لأنّ الفقر والتعب والتشرّد ومواجهة المخاطر كلّها تناسب حياتهم وبالطبع غدت صدى أنين قلوبهم، وتنعكس بصراحة في أشعارهم وتوفّر لنا نقطة بدء الدراسة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

ونستفيد منها في نقد هذه الخصائص.

خلاصة القول إننا نستطيع أن نعدّ خصائص أشعارهم على هذا النهج:

- انها تصور ضرباً من الأخلاق والنزعات لا نجده في غيرها.

- شعرهم يصور نفسياتهم وأعمالهم، فهو صدى للواقع الذي يعيشون فيه.

- يتميز شعرهم بوحدة الموضوع، فليس فيه مقدمات تمهيدية من غزل وبكاء على الأطلال ووصف للرحيل والرواحل أو استطراد الى موضوع آخر.

- أكثر شعرهم مقطوعات لا قصائد، ولعلّ مردّ هذا الى انهم ذوو خفّة وسرعة واختلاس، لم يألفوا التمهل والتروي والتنميق، فجاء شعرهم صورة من حياتهم.

- ليس في شعرهم غزل، وكيف يتغزل من يقضي نهاره يترقب، وليلة يترصد، ولا يستقرّ في مقام؟

- يكثرون من توجيه الخطاب في شعرهم الى زوجاتهم.

هنا يجب أن نتذكر أنّ أهم خصائص أشعار الصعاليك هي أن شعرهم أكثر امتزاجاً بالعاطفة، وهذا الامتزاج تحقق من جهتين: ١ - الفطرة الانسانية ٢ - الفطرة اللغوية.

سبب هذا الامر واضح جداً لأنّ الصعاليك جعلوا ساحة الصحراء الطاهرة ميدان جولانهم، والفطرة الانسانية تتمتع ايضاً بهذه الخصيصة في بداية الولادة ويتلطخ هذا الخلوص بالرذائل في إقبال الحياة وإدبارها. وحتى ان لم نضع هذه الموارد نُصْبَ أعيننا، فلا شك في استطاعة المجتمع أن يوجد الخصائص الصناعية في ضمير أفراده لأنّ المجتمع بيئة تربوية ويفصل بينهم وفطرتهم الأصيلة، وعلاوة على ذلك فإن المجتمع ظاهرة معقّدة، وفي متنه يوجد الاصطكاك والالتقاء الكثير بين الناس من حيث الكمية والكيفية.

ولكن في حضن الصحراء الطاهر للتربية وجه آخر، ففي هذا الاسلوب التربوي لا مجال للكذب والخداع والحرص والطمع وادّخار المال و... يقول الشنفرى في لامية العرب:

وان مُدَّت الأيدي إلى الزادِ لم أكن

باعجلهم، اذ أجشعُ القومِ اعجلُ

قلنا انّ الوجه الآخر لهذه الفطرة، الفطرة اللغوية وبوسعنا أن نذكر الدلائل التي ذكرنا لتحقق الفطرة الانسانية لهذه الفطرة أيضاً.

المنشأ الأصلي للغة العربية الثمينة ساحة الصحراء الطاهرة، وكان الصعاليك أكثر ارتباطاً بهذه البيئة الزكية الطاهرة، ولهذا السبب نجد أشعارهم أقرب الى فطرة اللغة العربية وتتمتع بامتزاج أكثر وقد تستعمل أشعارهم لشرح المفردات في المعاجم اللغوية. مثلاً، توجد مجموعة كبيرة من شعر الصعاليك في لسان العرب وتاج العروس، كما يوجد في أشعارهم الكثير من المفردات الغريبة وقليلة الاستعمال، مما يحملنا للوصول الى معانيها، على أن نرجع الى كتب اللغة المطوّلة، لأن المعاجم الصغيرة لا تكفي لهذا العمل، مثلاً انظروا الى هذا البيت من تأبط شراً الذي استعمل فيه مفردات غريبة:

وحَثحَثْتُ مشعوفَ النّجاءِ كأنّني

هِجّفٌ رأى قصراً سِمالاً وداجناً[٩]

في هذا البيت، المفردات: هجف بمعنى ظليم، وقصر بمعنى الامتزاج بين النور وظلام الليل، غريبان للذهن. وايضاً مفردة «صفراء» في هذا البيت من لامية العرب للشنفرى:

ثلاثةُ أصحابٍ: فوادُ مُشَيّعٌ

وابيضُ اصليتٌ وصفراءُ عيطَلُ

إذا نظرنا الى دقائق أشعار الصعاليك نجد خصائص أخرى فيها وهذه الخصائص جميلة جداً، مثلاً اسلوب

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

القصة والواقعية مطلبان مهمان في أشعارهم:

أُسلوب القصة:

ما يلفت النظر في شعر طائفة الصعاليك هو أُسلوب القصة عندهم اذ يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي، فحوادث المغامرات، والصراع الدامي المرير، وأخبار الفرار والعدو، والسطو والنهب، والتشرد في مجاهل الصحراء بين الوحوش والأشباح، والتربُّص وانتظار الضحايا، كل هذا يشكل مادة قصصية غنية، وقد استطاع الشعراء الصعاليك استغلال هذه المادة الهائلة وأتوا بها بأسلوب قصصي رائع ومثير، تسيطر عليه العفوية، والبساطة والإثارة والتشويق، وتسلسل الأحداث حتى تصل الى نهاية وغاية محتومة.

الواقعية:

الواقعية هي صورة حياتهم، والحياة بشكل عام، بما فيها من ظواهر مختلفة ومتناقضة من خير وشر، كانت هي موضوعاتهم، إذ ابتعدوا عن الإمعان في الخيال الذي ينقلهم من عالم الواقع الى عالم الأوهام، وكما رأينا في موضوعات شعرهم فانهم كانوا يسجلون الحوادث تسجيلاً دقيقاً ويصفون ما يجري معهم بكل دقة، وكانت صورهم مستقاة من البيئة الطبيعية والنفسية والفكرية التي كانت تحيط بهم، وتتغلغل في أعماقهم، وكان الصدق في النقل هو العنوان البارز في واقعيتهم وقد رأينا هذه الواقعية عندهم في الأمثلة الشعرية الكثيرة التي أوردناها في طيات هذا البحث.

علاوة على تلك المطالب المفيدة التي أشرنا اليها، نرى أيضاً مطلباً آخر في أشعار الصعاليك وهو القلق الفني. اذ كانت حياة الصعاليك تقوم على القلق والاضطراب، فلابد لهذه الحياة من أن تنعكس على قولهم اضطراباً وقلقاً، فالكفاح المرير من أجل الحرية والعيش والطموح من اجل الغنى والمتعة، جعلهم دائماً في تمزق وحيرة وترقب وترصد، وهذا تأبط شراً يقول:

يظل بموماةٍ ويُمسي بغيرها
جحيشاً ويعروري ظهور المهالك

وعلى هذا كانت لهذه الحياة أصداء واضحة في شعرهم، وسمت قصائدهم بالسرعة والقلق الفني والاضطراب النفسي، ولعلّ ابرز ما يلفت نظر الباحث في هذه السرعة والقلق الفني هو عفوية الصنعة الفنية في شعرهم. إن شعرهم ينطلق كحديث سريع، يتدفق من نفس الشاعر دون أن يحرص أو يتمهل لينسق قوله أو فنه، أو يلونه بتلك الألوان الزاهية التي يحرص عليها الشعراء الآخرون، والواقع إن حياة الشاعر الصعلوك وما رافقها من اضطراب فرضت على شعره وفنه حتى انها لم تسمح له بالفراغ والاطمئنان والوقت الكافي ليتمهل في عمله أو يتأنى فيه، من اجل الجودة والرفعة.

٤ ـ مشاهير الصعاليك وأشعارهم:

عُروة بن الوَرد:

بين فرقة الصعاليك لعروة بن الورد وجه بارز. لم يكن داكن اللون كالشنفرى وتأبط شراً، ولم يطرد من قبيلته كأبي الطمحان القيني والحاجز الأزدي للشرارة، بل سبب نزعته الصعلوكية كان هو الاوضاع الصعبة والروابط الجائرة الاقتصادية والاجتماعية وغلبة الظالمين على المجتمع البدوي، فاجتمع حوله جمع من المحرومين المظلومين وأعانوه، إذ تيقنوا أن الحق لمن غلب، وفي هذا المجتمع الضعيف مهضوم.

في واقع القول يعتبر عروة بن الورد بين الشعراء العرب، أحب الشخصيات وأكثرها جاذبية، ذاك لما اشتمل عليه شعر هذا الشاعر الجاهلي الفطري من آداب انسانية رقيقة، وأخلاق الفارس النبيل الكريمة المعطاء،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

مـع جـود بـعيد عـن التكلف والافـتعال، وروح تـعطي المحتاج الفقير تتجلى في كل ما كان يقدمه للـناس مـن إحسـان ويـبذله مـن عـطف وكـرم تـجاه الصـعاليك والضعفاء والمساكين والمرضى؛ وهذا ما جعل الخليفة الأموي معاوية بن ابي سفيان يقول: «لو كان لعروة ولد لأحببت أن أتزوج اليهم». كـانت له فـتوة بـارزة حـين يقول:

انـي امـرؤٌ عـافى انـائي شـركةٌ
وانت امرؤٌ عافى اناءَك واحدُ[١٠]

الصعلوك الحقيقي عنده، هو ذاك الذي غـرست فـي نفسه البطولة وحب المغامرة، ذاك الذي يـخرج شـاهراً سيفه في وجه الظلم. دراسة هذه المطالب تبيّن لنا أكثر فأكثر أن عروة كان بحق فارساً من فرسان الجـاهلية المعدودين، كما عرفه الإصفهاني صاحب الاغـاني فـي حـديثه عـنه، وصـعلوكاً مـن صـعاليكها المـعدودين المـقدمين الاجـواد، ولقب بـعروة الصـعاليك لانـه كـان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم، فـيرعى أحـوالهـم، اذا اخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش، وقيل لقب بذلك لقوله:

لحـى اللهُ صـعلوكاً، اذا جـنَّ ليـلُهُ
مصافى المَشاشِ آلفاً كلَّ مـجزر
يـعد الغـنى مـن دهـره كـلَّ ليـلةٍ
أصاب قراها مـن صـديقٍ مـيسرِ
وللـهِ صـعلوكٌ، صـفيحةُ وجـهه
كـضوءِ شـهابِ القـابسِ المـتنوّرِ

كان يحب الصعلوك الغازي، المقدام، الذي لا يخشى الردى والمنية ولا يخاف الأعداء مهما كانوا، بل يغزوهم من مكان عال رفيع ويجعلهم في صياح وصراخ. وحياة الصعلوك عنده إما الموت وإما الفوز.

ويقول عروة انه يقاتل من أجل أهـداف، لانّ حـركة الصعلكة ذاتها لم تنشأ في فراغ، ومن أجل اللاشيء، بل قامت نتيجة أوضاع قاسية اجتماعية ومادية.

ويجدر بالذكر هنا أنّ وجود عروة أمـير الصـعاليك وأخلاقياته الراقية التـي هـي فـي مـضمونها قـيمُ النـبل الحقيقي لم تقتصر فاعليتها على الصعاليك الذيـن كـان منهم. انـظروا الى كـرمه الذي يـتحدث عـنه فـي هـذين البيتين:

فراشي فراشُ الضيف والبيتُ بـيتُهُ
ولم يُـلهِني عـنه غـزالٌ مـقنَّعُ[١١]
أحـدِّثه إنّ الحـديث مـن القـرى
وتـعلمُ نـفسي أنّـه سـوف يـهجَعُ

إنه يتحدث عن جوده وكرمه الزائدين، وهـذه صـفة الصعاليك والعرب عامة، اذ إنّ فراشه للضيف، والبـيت بيته، وإنه لا يـلتهي عـن ضـيفه بـامرأة حسـناء تـلبس القناع، ويبقى وضـيفه يـتبادلان اطـراف الحـديث حـتى ينام ذلك الضيف. وهذا دليل عناية فائقة بالضيوف.

وكثيراً ما كانت نساؤه يلمنه على مغامراته في سبيل الصعاليك، فلم يكن يصغي إلى لومهن. على انه كان من آدب الناس وأجودهم يداً معهن. والدليـل عـلى ذلك مـا أثنت به عليه امرأة كنانية كان قد أسرها وتزوّجها، ثـم فاداها اهلها منه فقبل، فودعته بـقولها: «عـروة، والله مـا أعلم أن امرأة ألقت سترها على بعل خير منك، واغـضّ طرفاً، واقلّ فحشاً، وأجود يداً».

شعر عروة بن الورد:

كان عروة بن الورد يدوّن أحداث حياته، من غارات وتأملات في الحياة، في شعر شخصي صادق، وهو لم يسر على سنة الشعر الجاهلي من وقوف على الأطـلال والبكاء على الفراق، ووصف الجواد والناقة والليل، وإنما أعطى شعراً يعكس الحياة البدوية السـاذجة المـحفوفة بالأخلاق العالية، والآراء الصريحة حول الغنى والفـقر، والاعتماد على النفس وسوى ذلك من القضايا الانسانية السامية. ويمتاز شعر عـروة بـجمال المـعاني وطـلاوة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

التعبير، وإيقاع مريح، وبعد عن الغريب.

الجدير بالذكر هو أن الشعراء الصعاليك الذين دوّنت أشعارهم هما: عروة بن الورد والشنفرى. وشيء آخر هو أن أبا زيد القرشي في كتابه الشهير: «جمهرة أشعار العرب» قسم الشعراء الشهيرين الى سبع مجاميع وكل مجموعة تحتوي على سبعة شعراء وكل مجموعة منسوبة الى نوع من القصيدة التي سميت باسم أحدهم، وفي هذه المجاميع السبع ذُكر اسم شاعرنا في مجموعة «المنتقيات» وهذا الامر يجعل شخصيته الشعرية بارزةً.

اذا نظرنا في أشعار عروة نجد نماذج من نبوغه الشعري، فهو مثلاً، يصف الاسد الملك على كل الوحوش أحسن وصف ويستعمل في اشعاره هذه أجمل الصناعات اللفظية والبلاغية:

تـــبعّاني الأعـــداءُ إمّـــا الى دمٍ

وإمّا عُراضَ الساعدين مُصَدّرا[١٢]

يَـظَلُّ الإبـا ســاقطاً فـوق مـتنه

له العَدْوَةُ الاولى اذا القِرنُ اَصْحرا

كأنّ خـــواتَ الرَعـدِ رِزءُ زئـيره

مـن اللاءِ يسكـنُ العـرينَ بـعثّرا

انّ القلم عاجزٌ عن بيان الجمال الادبي والبلاغي الذي استعمل في هذه الابيات الثلاثة في وصف الاسد، على الخصوص أن امير الصعاليك اوجد تشبيهاً مقلوباً في البيت الثالث حيث شبه صوت الرعد بزئير الاسد.

الشنفرى:

فما لكم لم تُدركوا رِجْلَ شنفرى؟

وانتم خِفافٌ مثلُ اجنحةِ الغُربِ[١٣]

في هذا البيت يعلن «ظالم العامري» تعجبه من سرعة عدو الشنفرى ولكن تعجبنا وحيرتنا أشد من تعجب ظالم العامري بمرات؛ إذ إن حياة هذا الصعلوك لغز محيّر للعقول وامتزاج من الخيال والواقع.

ثابت بن أوس الأزدي الملقب بالشنفرى هو من قبيلة اوس بن حِجر من عشائر قبيلة الازد اليمنية، أي من النسب القحطاني. لفظة الشنفرى، أي انسان ذو شفتين سميكتين، تدلّ انه كان من جانب أمه ذا عنصر حبشي وكان قد ورث دكن اللون منها. ليس تأريخ ولادته معلوماً. طُرد من قبيلته وقضى حياته في قطع الطريق وسرقة أموال الأثرياء، وبما انّه كان من عدّائي العرب لم يقع في الاسر إلّا قليلاً وبقي منفرداً في الجبال والصحارى، أو مع الوحوش والحيوانات، وفي هذا الطريق حصل على نوع من الانطباق مع الطبيعة كما يقول في قصيدته لاميّة العرب:

ولي دونكم أهلون: سيدٌ عملّسٌ

وارقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جيألُ

لامية العرب صورة حيّة لحياة الصعاليك وروحهم الوحشية والبدويّة. قد انشدت هذه القصيدة في ٦٨ بيتاً وفي البحر الطويل. أشهر الشروح التي كتب لها، هو شرح الزمخشري بعنوان «أعجب العجب في شرح لامية العرب».

قصيدة لامية العرب مثال كامل لكيفية شعر البادية الخالص وذلك بيان صريح من عزة النفس والحياة الصعبة وحقيقة البيئة الجاهلية. لقد بيّن عزة النفس والتجنّب من الذّل في هذا البيت بصورة محسوسة:

واَستَفُّ تُربَ الأرضِ كي لا يرى له

عـليّ مـن الطـولِ امـرؤٌ متطوّل

الشنفرى هو شاعر العاطفة والاحساسات البدويّة والاثارة الباطنية والعصيان الروحي والطبيعة القهّارة والخشنة والبيئة المؤلمة غير القابلة للتحمل.

أبعاد حياة هذا الصعلوك متعددة جداً ولكن الجدير بالذكر انه صورة فريدة نلمس فيها حرارة العاطفة، وصدق البيان، وسمو الخيال وروعة التفكير المثالي في

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

كثير من موضوعات الحياة المثالية وموضوعات اخرى كالموت والفناء. ونلمس فيها أن هذا الشاعر الصعلوك كان أبياً شريفاً لم يمدح احداً قط رغبة ولم يهج احداً رهبة، بل كان مترفعاً عن مدح الناس بعكس شعراء الجاهلية الكبار كزهير والنابغة والاعشى وغيرهم والذين مدحوا الاشراف وملوك مناذرة الحيرة والغساسنة صدقاً وكذباً.

بيئة الشنفرى الثقافية:

عقب مقتل أبيَ الشنفرى ارتحلت أمه مع أخ له صغير إلى حي فهم ثم جاورت فهماً وقد تعرف الشنفرى في فهم صعلوكاً مشهوراً في عالم الصعاليك وهو تأبط شراً الذي اتخذه استاذاً له، وقد وجد تأبط شراً في تلميذه الشنفرى دلائل النبوغ والنباهة، فتبناه ولقنه دروساً في الصعلكة، كما وجد فيه تلميذاً شجاعاً فاتكاً ذكياً. ومن هنا نجد أن دعائم التربية الروحية للشنفرى اعتمدت على تربية الصعلوك المشهور تأبط شراً في مرحلة المراهقة او الصبا، وهي مرحلة لا شك في الحياة خطيرة. إذ إن الأصول تغرس بسهولة في نفسية الطفل. يقول الشاعر:

النفسُ كالطفل إن تُرضعهُ شبَّ على
حبِّ الرّضاع وان تَفْطِمْهُ ينفطمِ[١٤]

وكما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿قل كلٌّ يعمل على شاكلته﴾ (بني اسرائيل / ٨). والجدير بالذكر أن عروة بن الورد كان يمثل الجانب الانساني في حركة الصعاليك العرب، لكن الشنفرى وقف على الجانب الآخر لهذه الحركة، ومثل الجانب الشيطاني فيها.

موضوعات شعر الشنفرى:

١ ـ الانطباق مع الطبيعة ٢ ـ اباء الضّيم ٣ ـ الاستغناء عن المجتمع القبيلي ٤ ـ الافتخار بالشجاعة وسرعة العدو ٥ ـ العفة ٦ ـ اجتناب الترف والرفاهية ٧ ـ الغزل العفيف ٨ ـ الحكمة ٩ ـ المراصد.

لاثبات نبوغه الشعري يكفي ان نُشير اشارةً موجزة إلى لامية العرب أو قصيدته التائية؛ حتى نعلم قيمتهما الادبية أكثر من قبل بالنظر الى مناظرهما الجليلة الشعرية.

التحرّي عن صحة لامية العرب:

بلا شك هذه القصيدة معرض جليل للصحراء مع ظواهرها العجيبة كلّها، ولكن رغم ذلك اختلف الأدباء في صحتها اختلافاً كثيراً، بل إن كثيراً منهم قد شكّكوا فيها. وزعموا انّها ليست للشنفرى. وهذه أهم آرائهم بين نافٍ ومثبت ومتردد.

قال أبو علي القالي في كتابه الأمالي عن ابن دريد: «كان أبو محرز (خلف الأحمر) أعلم الناس بالشعر واللغة وأشعر الناس على مذاهب العرب. حدثني أبو بكر ابن دريد أن القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التي أوّلها:

اقيموا بني امّي صدور مطيّكم
فإنّي إلى قومٍ سواكم لأميلُ

له وهي من المقدّمات في الحسن والفصاحة والطول فكان أقدر الناس على القافية[١٥]».

وقد وافقه الدكتور يوسف خليف في كتابه «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي» واسند هذه القصيدة الى خلف الاحمر وقال: «والحق يقال ان خلفاً قد صوّر حياة صعاليك العرب في هذه اللامية تصويراً رائعاً ممتازاً، حتى ليصح أن تكون مصدراً من مصادر دراسة حياتهم الاجتماعية».

اتفق بعضُ الادباء والنقت آراؤهم على أنّ هذه اللامية للشنفرى وهم التبريزي والبغدادي والعيني وقد شايع الفريق الاول الزعم بان هذه اللامية لخلف الاحمر كل من ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء، والجاحظ صاحب كتاب الحيوان، ثم كرنكو في دائرة المعارف الاسلامية.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

أما ابو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الأغاني فقد أورد القصيدة ونسبها الى الشنفرى دون تحقيق أو نفي أو إثبات (أغاني الأغاني، ج ٣، ص ١٤٧٦، نشر طلاس)، وقد وثقها صاحب الطرائف الادبية اعتماداً على المصادر الادبية ونسبها حقيقة إلى الشنفرى.

أما صاحب كتاب قطوف من ثمار الأدب، الدكتور عبد السلام سرحان فقد وثقها وأثبتها للشنفرى وقطع بذلك يقيناً.

وعلاوة على ذلك، أكّد المستشرق جورج يعقوب صحة انتساب لامية العرب إلى الشنفرى من بُعد عاطفي وأعلن تعجبه لإنكار هذه القصيدة وقال: «إن موطن هذه القصيدة هي تلك المرابع في جنوب مكة بين الجبال التي تقع في شمال اليمن حيث مضارب الأزد قبيلة شاعرنا وإنني لا أفهم كيف يستطيع المرء أن ينكر هذه القصيدة التي تتنفس بعبير الصحراء، وترسم جاهلية العرب بكل نقاء، وتصور حياة رجل حمل أحقاداً أورثته إياها مظالم الناس وعقوق الاخوة وجور العدالة، ويعزوها إلى رجل من بين اولئك اللغويين الذين يقتلون وقتهم جدلاً في إعراب جملة صغيرة»[١٦]

ثم إن لنا ايضاً دلائل قاطعة تثبت صحة هذا الانتساب إلى الشنفرى لأن هذه القصيدة تمثل الجانب الجاهلي تمثيلاً صادقاً، وصفاً لمظاهرها العربية من صحراء ووديان وحيوان ثم وصفاً للزاوية الاخلاقية لأعراب الصحراء، فإذا ما تعمقنا في هذه القصيدة تعمقاً داخلياً لوجدنا أنها نابعة من حياة العرب في باديتهم حين يقول:

وخَرْقٍ كظهرِ التُّرسِ قَفْرٍ قَطَعتُهُ
بعاملتين ظهرُهُ ليس يُعْمَلُ
وألْحَقْتُ أولاهُ بأخراهُ موفياً
على قُنّةٍ أُقعِي مراراً وأمثُلُ

وتصور كل ما يدور في خيالهم من الغزو والسلب ووصف الحيوان وكثرة الألفاظ الخشنة والغريبة فيها، اذ ليس هناك في المدن ما يناسب جو القصيدة، لأنها قطعة من الصحراء بكل مظاهرها ووجوهها. مثلاً في وصف حرارة الجو المهلكة في الصحراء يقول:

ويومٍ من الشعرى يذوبُ لُعابُه
أفاعيه في رَمضائِهِ تَتَمَلمَلُ
نصبتُ له وجهي ولا كِنَّ دونَهُ
ولا سِتْرَ إلّا الأتْحَميُّ المُرَعبَلُ

هذه لا يمكن أن تكون من نسج خيال شاعر متحضر كخلف الأحمر قطعاً.

وقد ورد في الأثر أن رسول الله (ص) قال: «علّموا أولادكم لامية العرب فإنها تعلمهم مكارم الاخلاق».

إن نردْ أن نشك في صحة هذا الحديث فإجراء هذا الشك يكمن في قول ابن دريد لأنّنا لا نطمئنّ في صدق ابن دريد. واهم من هذا هو امكان اجراء هذا الشك في كثير من الاخبار والروايات وكانت هذه هي المسألة التي ألقت الدكتور طه حسين في شك مفرط حتى أنكر كلّ الأدب الجاهلي.

على أن الذي يزيدنا قناعة بأن هذه اللامية للشنفرى، وجود الألفاظ الوحشية الغريبة والوصف الدقيق الكامل للحيوان في ثناياه، وهذا مطابق للشعر الجاهلي فنياً. مثلاً في مقايسة بيت من اللامية وبيت من معلقة امرئ القيس نشاهد تشبيهاً في البيتين وأيضاً اشتراكهما في وصف جزء من الطبيعة:

فعنَّ لنا سِربٌ كأنّ نِعاجَهُ
عذاري دَوارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ
(شرح المعلقات السبع للزوزني، ص ٣٥)

ترودُ الاراوي الصُّحمُ حولي، كأنّها
عذاري عليهنَّ المُلاءُ المُذَيَّلُ
(من لامية العرب)

ومن المعروف عن الشعر العباسي أنه رقيق

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

متحضر، وتكثر فيه الالفاظ السهلة المألوفة، فكيف يكون ذلك؟ حتى لو فرضنا أن هذه القصيدة من نظم خلف الاحمر فإنه لن يستطيع أن يأتي بشكل هذه الالفاظ الوحشية الغريبة.

تقليد العجم لها ومحاكاتها:

أما الذي جاكاها فانه «الطُّغرائي» شاعر العجم العظيم، فنظم قصيدته اللامية هذه معبّراً عن آلامه من العزل وعطله من العمل في ظل الدولة السلجوقية ومطلع لامية العجم هو:

أَصالةُ الرأي صانَتْني عن الخَطَلِ
وحِلْيَةُ الفَضلِ زانَتْني لدى العَطَلِ[17]

وقد حاول الطُّغرائي السير على نهج شاعر العرب الشنفرى في اللامية، من حيث المعاني والألفاظ والموضوعات، ولكنه لم يصل الى ما وصل اليه الشنفرى في صدق التعبير وسموّ الافكار.

الهوامش

١ ـ الزوزني، شرح المعلّقات السّبع، قم، منشورات ارومية، ١٤٠٥ هـ ق، ص ١٢٧.

٢ ـ اميل بديع يعقوب، ديوان الشنفرى، الطبعة الاولى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩١ م، ص ٥٩.

٣ ـ شرح المرزوقي على حماسة أبي تمّام، النشر والتحقيق لأحمد امين وعبد السلام هارون، ج ١، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٩٥.

٤ ـ عبد الوهاب عزّام، ديوان المتنبي، بيروت، نشر دار الزهراء، ص ٣٣٤.

٥ ـ ديوان عروة بن الورد، أمير الصعاليك، تحقيق وشرح اسماء ابي بكر محمد، الطبعة الاولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ص ٦٧.

٦ ـ لا ادري شاعر هذا البيت، وجدته في كتاب «الشنفرى شاعر الصحراء الأبيّ»، تأليف الدكتور محمود حسن ابو ناجي، ص ٥٠، واحتمل أنّ شاعره خامل الذّكر.

٧ ـ ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق احمد شاكر، الطبعة الاولى، القاهرة، ١٩٦٦ م، ص ٤٩٥.

٨ ـ الزوزني، السابق، ص ٢٨.

٩ ـ ابو الفرج الاصفهاني، الاغاني، المجلد ١٨، تحقيق عبد الكريم الغرباوي، محمود محمد غنيم، الطبعة الاولى، بيروت، مؤسسة: جمال للطباعة والنشر، ص ٢١٣.

١٠ ـ ديوان عروة بن الورد، السابق، ص ٦١، والاغاني، السابق، ج ٣، ص ٧٤.

١١ ـ ديوان عروة بن الورد، السابق، ص ٨٣.

١٢ ـ المصدر السابق، ص ٦٥.

١٣ ـ ابو الفرج الاصفهاني، السابق، ج ٢١، ص ١٨٦.

١٤ ـ من قصيدة البُردة لشرف الدين محمد البوصيري.

١٥ ـ ابو علي القالي، كتاب الأمالي في لغة العرب، ج ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨ م، ص ١٥٧.

١٦ ـ لامية العرب، نشيد الصحراء، لشاعر الازد (الشنفرى)، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٧٤ م، ص ٢٦.

١٧ ـ فؤاد إفرام البستاني، المجاني الحديثة، ج ٣، الطبعة الثالثة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ص ٣٣٩.

المصادر العربية

١ ـ إبن منظور، محمد بن أبي مكرم بن علي بن احمد (متوفى ٧١١ هـ)، لسان العرب، طبع القاهرة، ١٣٠٨هـ.

٢ ـ إبنا هاشم: أبو بكر محمد وأبو عثمان، الأشباه والنظائر من اشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، تحقيق الدكتور سيد محمد يوسف، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨.

٣ ـ أبو بكر محمد، اسماء، ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.

٤ ـ أبو ناجي، محمد حسن، الشنفرى شاعر الصحراء الابيّ، ط ٣، دمشق، علوم القرآن، ١٩٨٤.

٥ ـ الاصفهاني، أبو الفرج، الاغاني، ٢٦ جلداً، تحقيق عبدالكريم ابراهيم الغرباوي، محمود محمد غنيم، بيروت، مؤسسة جمال للطباعة والنشر.

٦ ـ افرام البستاني، فؤاد، المجاني الحديثة، ط ٣، بيروت، المطبعة الكاثوليكية.

٧ ـ البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، القاهرة، ١٢٩٩ هـ.

٨ ـ التبريزي، الخطيب، شرح اختيارات مفضّل، تحقيق الدكتور

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]

فخر الدين قباوه، ط ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.

٩ ـ الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء (١٣٩ ـ ٢٣١ هـ)، شرح محمود محمد شاكر، دار المعارف للطباعة والنشر.

١٠ ـ خليف، يوسف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط ١، مصر، دار المعارف، ١٩٥٩.

١١ ـ الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي (متوفى ٥٣٨ هـ)، أعجب العجب في شرح لامية العرب، ط ١، نشر وراق، ١٣٢٨ هـ.

١٢ ـ زغلول سلام، محمد، تاريخ النقد العربي الى القرن الرابع الهجري، ج ١، مصر، دار المعارف.

١٣ ـ الزوزني، شرح المعلقات السبع، قم، منشورات أرومية، ١٤٠٥ هـ.

١٤ ـ عزّام، عبد الوهاب، تصحيح ديوان المتنبي، ط ١، بيروت، دار الزهراء، ١٩٧٨.

١٥ ـ القالي، أبو علي، كتاب الامالي في لغة العرب، ط ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨.

١٦ ـ القريشي، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، ط ١، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

١٧ ـ لامية العرب نشيد الصحراء، لشاعر الازد (الشنفرى)، ط ١، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٧٤.

١٨ ـ المزروقي، أبو علي بن محمد بن الحسن (متوفى ٤٢١ هـ)، شرح الحماسة، تحقيق عبد السلام هارون واحمد امين، ط ١، نشر لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٣.

١٩ ـ الملّوحي، عبد المعين، اللاميّتان، ط ١، دمشق، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٦.

المصادر الفارسية

١ ـ ابن قتيبة، مقدمة الشعر والشعراء، ترجمة آذرتاش آذرنوش، چاپ اول، تهران، انتشارات امير كبير، ١٣٦٣ هـ ش.

٢ ـ ابن نديم، كتاب الفهرست، ترجمة م. رضا تجدّد، چاپ دوم، تهران، چاپخانة بانک بازرگانی ايران، ١٣٤٦ هـ ش.

٣ ـ بروكلمان، كارل، معالم البلاغة العربية، ترجمة دكتر عبد الحليم النجار، چاپ دوم، قم، دار الكتب الاسلامية.

٤ ـ رجائی، محمد خليل، معالم البلاغة در علم معانی وبيان وبديع، چاپ دوم، شيراز، انتشارات دانشگاه شيراز.

٥ ـ صاحب بن عبّاد، امثال سائره از شعر متنبی دكتر فيروز حريرچی، چاپ اول، تهران، انتشارات سحر، ١٣٥٦ هـ ش.

٦ ـ ضيف، شوقی، تاريخ ادبی عرب (العصر الجاهلي)، ترجمة عليرضا ذكاوتی، چاپ اول، تهران، انتشارات امير كبير، ١٣٦٤ هـ ش.

٧ ـ ضيف، شوقی، نقد ادبی، ترجمة لميعة ضميری، چاپ اول، تهران، انتشارات امير كبير، ١٣٦٢ هـ ش.

٨ ـ فاخوری، حنّا، تاريخ ادبيات عرب، ترجمة عبد المحمد آيتی، چاپ اول، تهران، انتشارات توس، ١٣٦١ هـ ش.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-08-11]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.3.0]